

## الشاعر السوفياتي افتوشنكو

بقلم عايذة مطرجي ادريس

# مقابلة أدبش مع :



ليس من اليسير ، وانت في الاتحاد السوفياتي ، ان تلتقي بشاعرها الشاب افوتوشنكو ، بل ان الاجتماع به يبدو مستحيلا . ولكننا بعد محالات عديدة ، باء معظمها بالفشل ، استطعنا ان نلتقي به في احد فنادق باكو ، عاصمة جمهورية اذربيجان حيث كان يعقد مؤتمر للكتاب السوفيات دعي اليه عدد من كتاب آسيا وافريقيا . وهذا اللقاء الذي بسجنائه ، لم يكن حديثا صحفيا ، بل كان تداولا بين « اصدقاء » كما ذكر افوتوشنكو عندما لاحظ اني اسجل ما يقول . فهو يخشى « الاحاديث الادبية » ، ويعتقد انها كثيرا ما شوهدت اقواله ، وخاصة حين يأخذها الصحفي الغربي ، الذي يستقل تصريحاته ، ويسيء فهمها وتفسيرها ، ويوقعه في مزق ما زال القراء في العالم يذكرون تفاصيلها بعد ان اصدر كتاب مذكراته في باريس منذ سنوات ، واعتبر الغرب ان تلك المذكرات كانت موجهة ضد الاتحاد السوفياتي ، ناضطره ذلك الى مضايقات وتراجعات وتفسيرات .

ولم يكن النشمل بلغائه ليشبط همتنا ، خصوصا بعد ان شاهدنا هذا الاندفاع الصاعق الذي يكنه الشباب له . ففي احدى الامسيات التي نظمتها اتحاد ادباء اذربيجان للشعراء السوفيات ، التي عدد كبير من الشعراء قصائد ، بل واحد قصيدة . وكان افوتوشنكو ، قبل الاخير بواحد . وعندما ظهر ، اخذت القاعة تدوي بالنصفيق لفترة كانت كافية لان يلقي فيها شاعر اخر قصيدة اخرى . وحسن تعلم افوتوشنكو ، ساد القاعة فجأة جو من السكون والصمت . وقد قال : « لقد سمعتم اشياء كثيرة عن الفيتنام ، وعن الحرب ، وعن الدمار . وانتم منعمون ، فانكم قصيدة الحب هذه » . واخذ يلقي قصيدته ، وكان يعيشها بانفعال شديد ، ونسألم نظرائه ويداه ونحوالات جسمه ومرافقه فسسي التعبير الحسي عنها . ولم يكن من الممكن ان افهم معانيها ، ولا ان ترجم لي ، ولكنني استطعت ، من مشاهدة وجهه المحترق ناره وفضنه التي ضرب الطاوله ، وصوته المزجر او نظرائه الهادئة ، الحالة ، وصوته الضعيف الخنون ، ونقلبات يده المترججة المرنحة ، ووجهه الخزين ، ان اعيش جو القصيدة ، وشارك الجمهور انفعاله ...

وحين انتهى من قصيدته ، علا النصفيق والحماس ثانية ، ولم يكف الجمهور ، فهو يطلب منه المزيد : وكان افوتوشنكو ما يزال على المنصة ، فارتفع صوته يقول : « ليست هذه الامسية مخصصة لي ، ويجب ان اقيد بالنظام ، ولا يحق للشاعر هنا ان يلقي اكثر من قصيدة ، وانني احترم ذلك ، ولسوف التقي بكم في امسية اخرى ، هنسا ، اخصص ريعها لمساعدة الفيتنام » . وعاد ليجلس مكانه . ولكن الجمهور ظل يصفق ، بلا تردد ، وبحماس متزايد . وعندها وقف رئيس الجلسة ، ودعا من جديد افوتوشنكو قائلا له : « سوف نخسرق القاعة ، فانت ترى ان رغبة الجمهور لا تقاوم ، ولا يسعنا الا ان نلبي تلك الرغبة » وعاد صوت افوتوشنكو ينساب وسط الصمت العميق ، فكان القاعة لا تصفيق بالمثل . وعندما انتهت الحفلة ، كان المئات من الشباب يلاحقونه ، يطلبون منه ردا على تحية ، او توقيما على اوتوغراف ، او مجرد ابتسامة . وكان هو بوجهه الطفولي ، وابتسامته التي تحار في تفسيرها ، يختفي فجأة ، بين الالوف من البشر .

وفي الفندق الذي جمعنا ، حدثنا باننا قدمنا من لبنان ، من البلاد العربية ، وان العرب يعرفونه ويتبعون انتاجه الشعري واننا قرأنا

مذكراته ، ونرغب في التحدث معه لاعطاء فكرة واضحة عن شخصيته « المشوهة » ، التي اخذناها عبر وسيط من الصحف غير الروسية ، فسالناه : ( وكانت المستشرقة المعروفة ليينا ستبانوفا تقوم بالترجمة ) .

— من من الشعراء الغربيين تحب ؟

فقال : لا يوجد في فرنسا شاعر سوى سان جون برس . \*

وسألناه عن رأيه في ارغون تمهيدا لجعله يتحدث عن نفسه قال :

— ارغون لم يعد اليوم شاعرا . لقد انتهى فينا وجماليا . ان الرونق الذي كان يتمتع به في شبابه قد بهت .

— هل تؤمن بالشعر الملثزم ؟

— لا بد للشعر من ان يحمل سلاح الكفاح . ولكن لا ينبغي ان يستمر طويلا في حمل هذا السلاح ، لان يد الشاعر تتعود عليه وتصبح

متشنجة ، وهذا الخطر لا يقل عن خطر من يحمل الازميل دائما ، انه

ينحت ، لكن الفرق واضح بين تمثال جامد وتمثال حي . والشاعر ، لخنان ،

يجب ان يجمع بين يد حامل السلاح ويد الصانع ، والا اصبح الشعر



من اليمين : عابدة مطرجي ادريس ، الشاعر افتوشنكو ، الزميلة اميلي نصر الله

— لا ادري ، لا افهم . انا شاعر فقط . لا اسطيع ان افرق بين الشكل او المضمون ، حين افول الشعر يختلط الامر لدي . اما اذا اردتم ان اكون الان ناعداً او محلاً فأنني افول ان الشكل هو وسيلة ، والمضمون هو الهدف . ويمكن لبعض المفاهيم السياسية ان تدخل الابد . فاذا كانت الوسائل عاطلة او مشبوهة ، من الناحية المعنوية ، فسان الهدف سيثوه بسبب الوسائل مهما كان هذا الهدف نبيلاً . لنضرب مثلاً : ملحمة عن الفيتنام تصاغ بطريقة تعليمية . ان الهدف نبيل ، ولكن الطريقة معرفة . فهو اذن يصيب ضراً للفيتنام بدلاً من ان يخدمها ، فان الناس سوف يضجرون . مثل آخر : مآثر رواد الفضاء ، اولئك الذين كانوا يفامرون بحياتهم . لو احصينا عدد الفوائد السيئة التي فيلت فيهم ، لادركنا الى اي حد فقدت هذه المآثر رونقها . وانا اعتبر ان في تلك الطريقة ترخيصاً للمعاني الكبيرة وابتدالاً لها .

— والصراع بين القديم والجديد ؟

— انا لا اعتبر ان هناك معركة بين القديم والجديد ، وانا لا افهم هذا التحديد ، لان الفن الخالد يبقى دائماً جديداً . القضية فضية موهبة وفرن جيد او سيء ولا فرق عندي ان يكون الكاتب محدثاً او قديماً ، فانا مثلاً حين اقرأ روبرت غرييه او نتالي ساروت لا اتأثر كما اتأثر عندما اقرأ دوستيوفسكي . وانا اريد للفن ان يهزني ، ان يهدمني ثم يبني . ولا فرق لدي في الزمن او الطريقة .

— سؤال خاص . هل ندمت على شيء كتبت في الماضي ؟

— في كثير من الاحيان ، وبشكل دائم . كان نيكرا سوف معظوظاً جداً . فعندما نشر كتابه ، اشترى جميع النسخ واحرقها ، كان الصدد ضئيلاً . اما نحن ، فماذا نفعل ، ونحن نطبع مئات الالوف من النسخ . ولو استطعت ، لاحرق ثمانين بالمائة مما كتبت لاسباب فنية وبسبب تلك الافكار الايديولوجية الساذجة التي تبلغ حد السخافة التي تبدو لسي اليوم . وما يبرها هو انها يومئذ لم تكن تبدو كذلك .

— هل تعتقد ان فن القاء الشعر سيصبح فناً بعد ذاته ؟

— معاذ الله .

— ما هو شعورك بينما كنت تؤدي خدمة الجيش ؟

— شعور من الاعتزاز . على أنني كنت اؤدي نوعاً خاصاً من الخدمة . فقد كنت احمل بالدبابة والقي قصائدي بين الجنود . ولقد اصبت بالدهشة لمستوى الضباط الشعري ، واكتشفت انهم اناس لا يحبون خوض الحروب ولا يمكن ان يطلقوا النار عن عمى وان كانوا لا يتأخرون في خوض الحرب .

شمارا او دعاية ، كما نلاحظ ذلك عند اراغون . فهو قد استعمل في شعره الكثير من التعابير والكلمات التي استعملها في نثره ، فاذا بتلك الكلمات تفقد ذلك « الزغب السحري » الذي تحمله الفراشات . ان الشعر موهبة .

— وانت ، هل لديك موهبة ؟

وغرق في الضحك ، واجاب : يمكن ان يكون لدي شيء من الموهبة التي اعطاني اياها الرب ( او الشيطان ) ولكن المهم في رسالتي كشاعر ان اعبر عن الاشياء التي لا يستطيع ان يعبر عنها سائر الناس ، وبطريقة لا يمكن ان يعبروا عنها كما اعبر انا .

— ولكن هل تعتبر نفسك قد نجحت ؟

— لا اسطيع ان اعتبر نفسي ناجحاً ( وكانت لهجة كلامه وابتمامته تدل على عدم ايمانه بهذا الكلام ) ولكن الشاعر يحاول ، وانا احاول .

— بالنسبة لطبيعة الشعر ، هل تعتقد ان هناك لحظات من الالهام تتناوب ، ام هو جهد تيزله ؟

— انا اؤمن بطبيعة الموهبة ، الموهبة اولا وقبل كل شيء .

— هل هذا يعني ان الشعر لا يحتاج الى جهد دائم ؟

— طبعاً . اذا كان العامل يحمل في يده شقوفا فلا بد لكل شاعر

اصيل من ان يحمل شقوفا في قلبه .

— انت تعتبر من المجلدين في الشعر الحديث ، ومن الشعراء الشباب

المجديدين ، فما هي مآخذك بالنسبة للشعر الكلاسيكي ؟

— الشعر اي شعر ، يجب ان يثبت من الارض التي انبتت شجرة الشعر . ان الحدائق المعلقة فوق الارض يمكن ان تعيش فترة ، وليس لها جذور في الارض ، ولكن اوراقها لن تلبث طويلاً حتى تذبل . والشجرة يمكنها ان تترك الارض التي انجبتها في البداية وقت شبابها لانها تريد ان تمزق الارض لكي تكبر . ولكن ما ان تكبر ونخضوض حتى تحس بحنينها الى الارض التي انبتتها . هذا ما قاله مايكوفسكي « يجب ان نطرد بوشكين » . لقد كان بحاجة الى هذا الكلام لكي يشق طريقه . ولكن عندما اشتهر ، فهتمت هذه الاوراق ان نمثا اقل من ثمن الارض ، فعاد ليقتدر بوشكين ودوستيوفسكي ، وكان مايكوفسكي يومئذ من اكبر الشعراء . وانا احب مايكوفسكي في بدايته ، واحبه في نهايته . احبه عندما شق الارض ، واحبه عندما عاد اليها . وانا اتمنى ان يكون لحياتي اخرة جميلة .

— لنعد الى السؤال الاول ، او لنحوه حسب تعبيرك ، ما هي

الزايا التي تعتقد انك شققت بها الارض في الشكل والمضمون ؟

# الرعب

حزين قلبي الظمان يا صخر  
وأعمق منه في الشجو الارائين التي انبعثت من الأعماق  
ما تجدي الارائين؟!  
يظل الشوق يجرحها  
يظل الشوق يذبحها  
فلا تعطي سوى زهره ..  
من الأعماق سوداء التلاوين  
صدى في الريح مجروح التلاجين

\*\*\*

وأنت غمست في نهر المداد الراعف الأسود  
خرابطما تعب الترح ، أنت أبحث للظل الرمادي الذي  
أوقد  
على قارعة الابعاد فانوسا من الظلماء ..  
يعطي الليل، ما يحتاج من دفق المداد الراعف المسود.

\*\*\*

وأنت كسرت آيتي  
هرقت الطيب منها قبل أن ينفد  
أتحت لمن يبيع الخوف أن يلهو بما يدمي  
بما يشقي ، بما يجهد ..  
لبست ثياب ديانين قالوا : ينبع الكوثر  
ويسقي بالرحيق الحلو من في وجدته يسهر  
وتحت الثوب جلد مفعج فيه من اللفح الجحيمي  
تلاوين .. أتوعدنا وأنت الظل بالاقمار ؟  
تمنحنا الرحيق وأنت علقمنا الذي يصمي ، يغص  
حلوقنا  
يا أيها الرعب الذي غطى مخالفه بقفاز من الفرو ..  
أحمد حسن أبو عرقوب

ما هي مشاريعك الادبية ؟

- انني انضم الى احد الفنانين الذي رد مرة فائلا : الاعمال الفنية  
يجب ان لا تفتن بكلمة مبتذلة ككلمة مشاريع . على انه لدي فكرة : ترك  
الشعر وكتابة القصة .

- ان تكون مصيبة لكتاب القصة ؟

- من اجل ذلك ساكتب قصة .

- ما رأيك باسترناك ؟

- لقد جرب باسترناك القصة بالرغم من ان احسن اتناجه هو  
شعره . ولكني فرأت دكتور جيفاغو خمس مرات وكنت في كل مرة اكتشفها  
واحبها بالرغم من انني لم احبها من المرة الاولى . صحيح ان المفروض  
بالعمل الادبي الجيد ان يعجب من الوهلة الاولى ، ولكن القاريء يجب ان  
يكون صبورا . وانا لا استطيع ان افول انها رواية جيدة اولا . ولكن هناك  
الاحساس بان كاتبها عمقري . هناك صفحات ضعيفة واخرى رائعة .  
والقاريء يؤلف بينها .

- ما هو رأيك بسولجنتسين ؟

- الاحساس الاول هو الامتنان العميق لهذا المؤلف ، فهو يجعلني  
اشعر بالاعتزاز لكوني روسيا ، ثم الاحساس به ككاتب . وروايته « ايام  
ايفان ديسونوفيتشي » جيدة بصورة عامة .

- ماذا عن شولوخوف ؟

- انني معجب « بالبدون الهادي » . انها رواية عالمية ، بالرغم من  
ان بولسنيوي قال عنها انها رواية محلية . وكان يجب ان يعطى جائزة  
نوبل من قبل ، عندما كان ينتج . اما اليوم فهي قد اعطيت لجة حية .  
- الى اين يتجه الشعر الروسي الحديث ؟

- انه يتعد عن طريق الصرخات لينفذ الى عمق نفس الشعب .  
ونحن قد شعبنا من هذه الصرخات واحمرت وجوهنا منها وحان الوقت  
ان نتعمق هذه الصرخات لنقرب من الصمت الفلسفي . صحيح انني  
شخصيا لا استطيع ان اعيش بدون الناس ومن دون مشاركة همومهم  
ولكنني بحاجة الى الوحدة والى الانعزال لكي اعمق هذه المشاركة واعيشها  
هنا . ان السمك حين يتعب ينزل فاع البحر ، فاما ان يستقر فيه ،  
واما ان يموت فيطفو على سطح الماء .

- هل زرت بلدا عربيا ؟

- لا ، ولكنني سمعت بعداتكم لاسرائيل . وبدا هذا العداء بصورة  
واضحة في كلمة الدكتور سهيل ادريس التي القاها في المؤتمر . الا  
تعتقدون انكم بهذا العداء العنيف تتجاوزون الدولة في اسرائيل التي  
الانسان هناك ؟

واخذ سهيل ادريس يتحدث التي افوتوشنكو بلهجة هادئة  
فشرح له قضية العرب في فلسطين من الزاوية الانسانية البحت وذكره  
بان السوفيات حين وقفوا في وجه النازية والفاشستية لم يكونوا  
يستطيعون ان يميزوا الدولة من الشعب الذي كان يعتنق النازية  
والفاشستية . ووضح له ان القرب كانوا وما يزالون في تاريخهم  
الطويل خير مثال للمعاملة الانسانية تجاه جميع الافليات التي عايشوها .  
ولكن الامر يختلف تماما حين تقوم دولة على الاغتصاب والظلم وطرد  
المواطنين من ارضهم وسلوك سياسة تمييز عنصرية اصبحت الان معروفة  
في جميع انحاء العالم .

ثم دعونا افوتوشنكو الى زيارة لبنان وزيارة بعض معسكرات  
اللاجئين الفلسطينيين كما سبق ان دعونا من قبل جان بسول ساتر .  
وصورنا له حقيقة المأساة التي يعيشها النازحون .

وقد عبر افوتوشنكو بعد ذلك عن اسفه لعدم اطلاعه على تلك  
الحقائق وقال انه يحترم رأينا وبات يفهم موقفنا ووعد بان يزور بيروت  
قريبا .

واذا كان هذا يدل على شيء ، فهو يدل على مدى تعميرنا في شرح  
قضايانا العادلة امام الرأي العام المثقف العالمي . ولا ينبغي ان نحصزو  
دائما هذا الوضع الى الدعاية الصهيونية وجدها بالفا ما بلغت من  
التأثير .  
عايدة مطر جي ادريس